

## الجيش المغربي عبر التاريخ

إنَّ نشأة وتكوين الجيش المغربي ليست وليدة اليوم أو تعود لزمانٍ قريب، بل هي ترجع إلى النشأة الأولى للبلاد لتتداخل مع تاريخه العريق. ولعلَّ الموقع الجغرافي المتميّز للمغرب في ملتقى البحار والقارات والتي جعلت منه حلقة وصلٍ بين الحضارات، إضافة إلى شساعة الأراضي التابعة لها من بين العوامل التي دفعت مختلف العائلات الحاكمة التي توالفت على حكم المغرب إلى إيلاء اهتمام خاص وكبير بتقوية وتنظيم قوات مسلحة للدّود عن البلاد ومواجهة مختلف الأطماع ودحضاها. هذا الجيش الذي مكّن الدولة من بسط سيادتها على ربوع البلاد ومكّنها أيضا من التصدي لمختلف الأخطار الخارجية المحدقة به.

في هذا الصّدد، اضطلع الجيش المغربي بدور هام ومحوري من أجل دعم وإرساء ركائز الدولة المغربية وضمان إستمراريتها، امتثالا لأوامر مختلف السلاطين الذين توالوا على حكم المغرب. لم تقتصر مهمة الجيش المغربي على حماية وتأمين النفوذ الترابي والحدود البرية والبحرية فحسب، بل تعدّتها لتشمل المساهمة في القيام بأدوار اجتماعية واقتصادية من خلال الانخراط في بناء الطرق وتشبيد القناطر والجسور إلى جانب حماية المحاور التجارية ومراقبة القوافل الصحراوية التي تربط المغرب بعمقه الإفريقي.

في بداية تأسيس الدولة المغربية، اعتمد المولى إدريس الأول (788-791م) على نواة مكونة من 500 فارس، كي تكون اللبنة الأساسية لجيش سينجح في توحيد جزء كبير من البلاد تحت راية واحدة، قبل أن يقوم المولى إدريس الثاني (791-829م) بتنظيم هذا الجيش وتقوية أواصره بواسطة تهذيب روحي وحُلقي مقرون بتدريبات عسكرية صارمة. وبهذا سيتمكن الجندي المغربي بالتشبع بالقيم العسكرية الحقّة واكتساب الكفاءات القتالية المطلوبة.

وقد نجح المرابطون، خصوصا على عهد يوسف بن تاشفين (1061-1106م)، في أن يؤسسوا جيشا مغربيا نظاميا قوامه 100 ألف جندي تقريبا، ضمّ فرقة من الحرس السلطاني و3000 فارس إلى جانب 3 فرق عسكرية مكونة من عدّة قبائل وأعراق. كما أشارت مصادر تاريخية متعدّدة إلى أنّ هذا الجيش كان يتوقّف على لواء حرب وفرقة طبول موسيقية، وأنّ جنوده كانوا يتلقّون تدريبات عسكرية تطبيقية حول مختلف أنماط الحرب والقتال منها التكتيكات الحربية، القتال على صهوات الجياد، تطبيق وضرب الحصار، بناء وتشبيد مختلف التحصينات، التدريب على مختلف التقنيات الدفاعية، التدريب على رمي الرّمح والقوس، إلخ... وكان يوسف بن تاشفين السياسي والقائد المحنّك، على رأس هذا الجيش قد نجح في توحيد البلاد وتحقيق نصرٍ كاسح على الإسبان خلال موقعة الزلاقة الشهيرة والتي دارت أطوارها سنة (1086م).

أما على عهد الموحدين، فقد وصل تعداد البحرية المغربية إلى أكثر من مئة قطعة بحرية، كانت تتخذ من موانئ قادس وألميريا قواعد استراتيجية لها. بعد الانتصار المدوّي خلال معركة الأرك (1195م)، قام الموحّدون، خلال فترة حكم السلطان يعقوب المنصور ببناء أسطول بحري مهيب يضمّ 400 وحدة بحرية. هذا الأسطول البحري كان هو الأكبر من نوعه في العالم العربي ومكّن المغاربة من أن يسيطروا هيمنتهم على البحر الأبيض المتوسط ويشكلوا أكبر إمبراطورية في الغرب الإسلامي بداية القرن 12، تمتدّ من المحيط الأطلسي غربا إلى مدينة برقة في ليبيا شرقا ومن تخوم الصحراء الكبرى جنوبا إلى الأندلس شمالا. كما يحسب للموحّدين أنهم أوّل من قام بتنظيم استعراض عسكري عقب كل انتصار في معركة أو حرب.

وقد أدّى ظهور السلاح الناري، على عهد المرينيين إلى قلب موازين القوى والتكتيكات الحربية، حيث يوثّق لأول استعمال للسلاح الناري سنة (1273م) خلال حصار سجلماسة، وهو المعطى الذي سيغيّر مناهج التكوين العسكري ويوجّهها نحو صقل مهارات أخرى كاستعمال البارود والتدريب على مختلف المدافع وغيرها. كما تميّز الفرسان المرينيون بإتقانهم لفنون الفروسية وتمكنهم من مختلف الاستعمالات التكتيكية لتقنية ركوب الخيل " الزناتية".

وقد أجمع المؤرخون على أنّ الجيش المغربي عرف تطوّراً كبيراً وتقدماً ملحوظاً خلال فترة حكم السعديين، حيث شملت هيكلته وحدات دعم ضمت فرقاً توفر خدمات طبية وبيطرية، أسهمت إلى جانب عناصر الجيش الأخرى في تحقيق النصر خلال معركة وادي المخازن (معركة الملوك الثلاثة) سنة 1578. هذا النصر الساحق سيمكّن المغرب من الدخول في حقبة جديدة من الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي وكذا تحقيق إشعاع حضاري غير مسبوق، خاصة خلال فترة حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي.

مع مجيء الأسرة العلوية الشريفة وتوليها مقاليد الحكم، تمتّ عصرنة سلسلة القيادة داخل الجيش المغربي وأحكم تنظيمه وتكوينه خاصة على عهد السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727م) والذي قام بإنشاء مركز للتكوين العسكري بمنطقة مشرع الرملة قرب مدينة سيدي يحيى الغرب حالياً، كما سهر على ضمان أمن وسلامة البلاد من خلال بناء شبكة مكونة من 76 قصبة وموقع محصّن على امتداد ربوع المملكة. إلى جانب المكونات التقليدية للجيش المغربي، المكون أساساً من تشكيلات عسكرية يتم إرسالها من طرف مختلف القبائل المغربية، تميّز هذا الجيش العصري بإدراج فرقة جديدة عرفت بـ "عبيد البخاري". وكانت المهمة الأساسية التي أوكلت لهذا الجيش هي ضمان الأمن الداخلي للبلاد وتحرير الثغور المحتلة وكذا التصدي لتهديدات القوى الأجنبية وأطماعها. على عهد هذا السلطان العلوي الكبير، تمكّن المغرب من استرجاع مدن المعمورة وطنجة والعرائش وأصيلة من براثن الاحتلال الأجنبي.

أما على عهد السلطان سيدي محمّد بن عبد الله، فقد تمّ تنويع أساليب استعمال مختلف الأسلحة والتقنيات المرتبطة بالتحصينات وتشديد الجسور والقناطر وأيضاً طرق إنجاز الحواجز البرية والبحرية والتي ستسهم كثيراً في تنظيم دفاعات عدد كبير من المدن الساحلية كموغادور (الصويرة حالياً) الرباط وسلا وطنجة وسيتم استرجاع مدينة مازاغان (الجديدة حالياً) سنة 1769. أما على مستوى الأسلحة، فقد نجح السلطان سيدي محمّد بن عبد الله في الاستفادة من خبرة السعديين في صناعة الأسلحة النارية حيث نجد أنّ جيش السلطان سيدي محمّد بن عبد الله كان يضمّ إلى جانب المكونات التقليدية (من مشاة وخيالة ورماة "طبجية") 50 قطعة بحرية بينها 30 فرقاطة حربية.

سير على نهج أسلافه المنعمين ومن أجل الدّود عن حمى الدولة المغربية الشريفة، قام السلطان مولاي الحسن الأول باطلاق مجموعة من الإصلاحات الجوهرية والتي همتّ بالأساس الجوانب الإدارية والاقتصادية والعسكرية. فيما يتعلّق بالجيش، تمّ إعادة تنظيمه وفق وحدات دائمة ونظامية أسندت مهمة تأطيرها لخبراء أجانب. وفي نفس الإطار تمّ تشييد معمل السلاح (المعروف باسم الماكينة) بمدينة فاس بإشراف إيطالي، كما تمّ إرسال ضباط مغاربة كي يتلقّوا تكوينات عسكرية وتداريب حديثة في عدد من البلدان الأوروبية (إنجلترا، ألمانيا، فرنسا، إيطاليا وبلجيكا). في الفترة الممتدة ما بين 1873 و1894 رافق السلطان أفواج كبيرة من العسكر خلال تنقلاته الـ19، المعروفة أيضاً باسم "المحلات"، وذلك من أجل الاطمئنان على وضعية الرعية والسؤال عن أحوالهم، وأيضاً للبحث في النزاعات والخصومات فيما بينهم وللتشديد على اللّحمة التي تشدّ أزر البلاد.

واستجابة لنداء السلطان مولاي يوسف (رحمه الله)، انخرط أكثر من 45 ألفاً من الجنود المغاربة سنة 1914 في غمار معارك حاسمة خلال الحرب العالمية الأولى إلى جانب قوات الحلفاء. وبتاريخ 14 يوليوز 1919، سيكتب الفرسان (السياهية) والرمّة المغاربة أسطراً من ذهب خلال مشاركتهم إلى جانب إخوانهم في السلاح من مختلف الجنسيات في استعراض عسكري مهيب مرّ من قوس النصر في شارع شانزليزيه، بالعاصمة الفرنسية باريس.